بناني مجهول

الاخ ساروفيم ڤكتور (١٨٧٩-١٩٢٢)

من اخوة المدارس المسيحية «الفريز»

بقلم ا. م. ب.

٢

الدروس — الترجمة والتأليف

باشر رشيد دروسه ، وانكبَّ على الممارسات الروحية الابتدائية للرهبانية. وقد كان احبّ الدروس اليه اللغة العربية التي رضعها مع الحليب ، فجدّ في درسها بلبنانيته وميله الفطري . لكنه كان يقدّس الدرس بالنية الصالحة ، وبغيرة رسولية تأهباً لمهنته المقبلة . فهو لم يدخل الرهبانية الا ليقدّس نفسه ، ويسعى في سبيل خير ابناء بلاده خاصة ، والبشرية جمعاء.

ولما آنس من نفسه الكفاءة في الانشاء ، باشر ترجمة كتب الرهبانية ، التي وضعها المؤسس القديس يوحنا دلاسال ، لخير رهبانه . وقد رأيت بعض هذه التراجم للفتى رشيد ، فأكبرت ذينك الاقدام والتضحية من لدن شاب ذكي في عنفوان الصبا . فانه لم ينقد للهوى فيترجم أو يؤلف ما يلذّ للشباب ، من مآتي الخيال والشاعرية بل ترجم ليتفهّم اكثر فاكثر معنى الحياة الرهبانية ، ويزداد رسوخاً في المسعى الذي اختاره . . . فمن طالع ما ترجمه الاخ ساروفيم الشاب ، لا يدري أهو تأليف عربي محض ام ترجمة عن لغة أجنبية ، بشير خير لمستقبل باهر .

وكانت نتيجة ذلك ان ازداد الاخ ساروفيم تعلّقاً في دعوته ، وتسلح بتقوى مكينة ليظلّ راهباً صالحاً ، على رغم ما اعترضه فيما بعد من المصاعب والعقبات . فاحتمل مشقّات الحياة الرهبانية القشفة بشهامة وثبات ، لتذرُّعه بروح الايمان .

ولولا التديّن الصادق والعفاف الملائكي ، لحبّت في رشيد عطا الله روح الكبرياء والخيلاء ، عندما عُيّن مديرًا للدروس العربية واستاذًا للبيان في جامعة الاخوة بالقدس ، وهو لم يتجاوز ١٩ ربيعاً .

ولكن فضيلة التواضع عصمته من الزلل ، ومن رذيلة التبجّح . فهو لم يفتخر قط بمعارفه . ومن لم يعاشره ، أو لم يتتلمذ له ، أو لم يقرأ مؤلفاته ، لم يكن ليدرك ان هذا الراهب الوقور الرزين ، يُلمّ بكثير من المعارف واللغات . فقد أدرك من العربية ما قصر عنه كثير من الادباء ، واتقن الافرنسية وآدابها كالمتضلّعين منها ، والانكليزية والموسيقى ، والرياضيّات . . . لكنه لم يكدّ في الحصول على العلم ، الّا ليقوم بواجباته خير قيام ، وينفع رهبانيته حق المنفعة .

صدر الدروس في القدس

« اسمح لي ان أبدي لك اعجابي بمعارفك الجمة ، فانت أحد أعلام العربية وعارفي اسرارها . » هذا ما وجهه المرحوم الشيخ سعيد الشرتوني اللغوي الشهير ، للاخ ساروفيم بعد زيارته معهد الاخوة في القدس ١٩٠٩ .

لم يكن للغة العربية شأن في المدارس الكاثوليكية في فلسطين منذ ٣٥ سنة . وكان معهد الاخوة ، في القدس اكبرها . وقد كانت العادة حينذاك ان ينهي الطالب دروسه في معهد الاخوة ، ثم يدخل المدرسة الانكليزية بالقدس ، ليتمّ دروسه العربية .

فآلم الاخ ساروفيم ان تُقدم جامعته المحبوبة ، ركناً من اركان التعليم الضروري في بلاد عربية . . فكان هو ذلك الركن . فاستلم الصفّ الاعلى ، وأخذ يُلقي دروسه كمن ملك ناصية اللغة وفقه كنهها . فحبّب الى تلامذته لغة أجدادهم . وانقلب وجه الامور . فأصبحت جامعة الفرير عماد اللغة العربية وركنها ، ومحجة الفصحى ، والمدرسة العليا في فلسطين لمن رغب التعمّق في العربية .

وتهافت التلامذه من جميع طبقات الامة وأديانها ، ليرتشفوا زُلال العلم الادبي ، الذي اصبح قريب المنال بفضل حسن اسلوب المدير الجديد .

وقد وضع منهاجاً للدروس العربية ، فريداً في نوعه في ذلك الزمن ، بناه على معرفة القراءة العربية وجودة النطق بها ، وتفهم معنى ما يُقرأ ، وبلوغ ذلك بواسطة اسئلة عديدة واستظهار معنى المفردات ، التي كان يعدّها ذخراً للطالب يُمهد له الكتابة ، لمعرفته الالفاظ ومعناها وعلاقتها أو اتصالها بعضها ببعض .

واني أعزو نجاح الاخ ساروفيم ، الى شديد اعتنائه بالاستعداد على الدروس وتدوينها يومياً في دفاتر كانت للاساتذة انموذجاً ومرجعاً ، لما حوته من التبويب الحسن ، والملاحظات القيمة ، والشروح التي كان يرغب ان يدوّنها التلامذة ، ولاسيما فيما يختصّ بقواعد العربية والتمارين ، وتصريف الافعال .

وقد رأيت تعليقه على كتاب علم الادب للمرحوم الاب لويس شيخو . فاتمّ ما نقص ذلك السفر الجليل ، ودلّ على فهمه التام لعلم بيان العربية ، وما اندر فاهمي هذا العلم ! ودبّت الحميّة في الاساتذة فاخذوا يحذون حذو مديرهم الشاب . فاصبحت الصفوف العربية جنة علم واستفادة ، بعد ان كانت ممقوتة تمضي دون كبير فائدة .

فكنت ترى الاساتذة ، حتى المتقدّمين المحنكين ، لا يأنفون من الاستنارة بمعارف الاخ المدير ، مستوضحين ما كان يظهر لهم غامضاً في اسلوب التعليم الجديد . . .

مرضه — وفاته

اخيراً لم يبقَ لذلك الذهب الّا بوتقة الالم لينقّى من الشوائب . فافتقده الله ، بالقدس ، بداء الصدر الوبيل منذ السنة ١٩٠٨ . فحاول الاستشفاء ، طوعاً لامر الرؤساء ، تارةً في لبنان وأخرى في وادي النيل . فلم يجده التنقّل نفعاً . فعاد الى فلسطين حيث رأيته بأم عيني يقاسي الامرّين من داء لا مردّ لفتكاته . ولدى كل نوبة كان يحسب انها مؤدية بحياته ، فيطلب الاسرار الالهية ويقبلها بكل ورع سائلاً اخوانه الصفح عن سيئاته .

ثم قضت مشيئة الله بان يُحمل الى فرنسة ، فسافر ومعه بعض الكتب المبرانية ليزداد تبحّراً في لغة كان درسها سابقاً ، مملّلاً النفس بالعودة الى الارض المقدّسة .

ولكن استحكام الداء لم يترك مجالاً فسيحاً لهذا الامل المنشد . فقاسى فقيدنا الآلام المبرّحة مدة ٩ سنوات كتب في خلالها واصفاً حالته : « أرأيتك لو سقطت قطرة ماء على صخرة مدة سبع سنوات فماذا تظنها تعمل فيها ؟ ايها الحبيب ، الجسم سقام وآلام وحطام ، والقلب همّ وغمّ وكلام ، والفكر حزن وضنك وظلام ، وانا من جرّاء ذلك في هاوية لا يدرك قرارها ولا يستطيع ان ينشلني منها الّا الخالق القدير . . . » على انه درس في غضون ذلك . . . وما عساه ان يدرس ؟ درس ما طالما مارس وعلم بثله ان يمارس ، درس الصبر . وما اصعبه على من يسم له الدهر مدة ثم رأى تلك البسمات تتحوّل الى تجهّم وعبوسة ؟ وهو الذي كان يكرّر علينا في الظروف الصعبة : « الصبر ! الصبر ! العين لا تقاوم مخرزًا ! » . وقد جنى من تلك المحنة الشديدة فضيلة الاستسلام لارادة الله ، فقال مع يسوع المنازع : « لتكن مشيئتك ، لا مشيئتي ! » ولبث السنة الاخيرة من حياته في تلك الحالة التي اذعن فيها لارادة الله ، ريثما اهاب به داعي ربه فلباه في ٢٢ كانون الاول سنة ١٩٢٢ ، في مدينة مولن (Moulins) في فرنسة ، ولم يرَ الرابعة والاربعين من سنيه .

صفاته

امتاز المرحوم الاخ ساروفيم بجميع الفضائل التي يزدان بها الرهبان فتدفعهم الى اتمام الواجب الذي خصّصوا ذواتهم له من التجرّد والتضحية والطاعة . وكان ابرز هذه الفضائل فيه التؤدة والصمت والتواضع .

كان متروياً رزيناً في كل ما يقول وفي كل ما يصنع . ظهر اثر ذلك في جميع اعماله وتآليفه سواء كان في النثر ، وكتابه « تاريخ الآداب العربية » شاهد لما اتاه من النحت والتذب والصقل ليسلس انشاؤه ؛ وفي الشعر ، ونظمه ، وان قليلاً ، دليل على اخذه بالاعتدال في اي فنّ طرقه من مدح ورثاء ومزح وغيره .

وكذلك كان في كلامه متروياً مقتصداً ، يألف الصمت ، فيزيده وقاراً وهيبةً ليست بالمزعجة . وقد حفظه الصمت من اغتياب الغريب ، ووفّر له

اسباب التفكير وانضاج المشاريع ، وسهل عليه طرق التأملات الدينية ومناجاة الله .

والصمت والتواضع توأمان . ولذا فمن حدث عن عالم صامت حدّث عن عالم متواضع . وما ابعد ما كان حبّ الظهور عن الاخ ساروفيم ! انه مؤلف ، ومع ذلك يبحث الانسان عبثاً عن اسم له على ظهر كتاب . وهذا اشهر كتبه « تاريخ آداب اللغة العربية » يظهر وليس عليه اسم صاحبه ، وذلك بارادة الاخ ساروفيم نفسه . كانت ايام الحرب ، وكنا في الاسكندرية والمرحوم في فرنسة . وكان قد يوشر طبع الكتاب ، وأُخذ بارسال المسودّات الى المؤلف . فأُرسلت « الملزمة » الاولى ، وعلى الصفحة الاولى منها بحرف كبير : « تأليف الاخ ساروفيم » ومضت بضعة ايام واذا بالملزمة تعود من لدن المؤلف وقد شطب على اسمه وكتب تحته : « تأليف احد اخوة المدارس المسيحية » . . . دارت الليالي واذا بن أُلقيت في ايديهم مقاليد الحلّ والربط الفوا ان الكتاب يضخم جداً ان طبعت كل التراجم المخطوطة ، فتقدموا الى المؤلف بحذف فصل ثم فصل ؛ فكان يصدع للامر رغم معرفته بانه سيُحتاج عاجلاً او آجلاً الى ما يحذفون في تلك الطبعة : وقد حدث ما كان يتوقعه . . . وهو ، فضلاً عن ذلك ، لم يشأ ان تطبع له قصيدة او خطاب او رواية ؛ وان كان طبع شيء فقسراً او على غير علم منه . بيد ان عاطفة الشكر دفعت احد مواطنيه من الاخوة فطبع بعض رواياته التمثيلية منذ سنتين في مجموعة سمّاها « الذكرى الخالدة » وكان قد سبق ونشر موجز ترجمته في الطبعة الثانية من كتاب « تاريخ الآداب العربية » .

ثالثاً

الروايات — الاوصاف

من عرف ما يقاسيه اخوة المدارس المسيحية من التعب ، والانهماك سحابة النهار وحصّة من الليل بما يؤول لانجاح تلامذتهم ، وممارسة ما تقضيه قوانينهم

الرهبانية ، يعجب كل العجب كيف انهم يجدون مجالًا ما للتأليف ، ولاسيما المسؤولون منهم عن دائرة من دوائر الادارة العامة .

والاخ ساروفيم كان ، مع القيام بتدريس صف البيان ، يهيئ موادّ الامتحانات الشهرية ، ويصلح معظم التحريرية منها ، ويقوم بالامتحان الشفوي . وبعد المدرسة وقبلها كان يطّلع على ما أعدّه كل استاذ ، ويناقشه في ما لا يراه موافقاً ، او يجدّد ما يراه ملائماً . . . ومع كل ذلك لم يحجم عن كتابة ما كان يدله ذوقه السليم الى ايجاده ، اذا لم يُوجد . فأوّل ما قام به كان وضع بعض روايات تمثيلية رأى الحاجة ماسّة اليها ، لفقر العربية بما يلائم ذوق الاولاد ويروق والديهم . ولما كانت اللغة الفرنسية غنية بمثل تلك الروايات ، اخذ عنها ستًّا ، طبعت المطبعة الكاثوليكية اربعاً منها تحت عنوان : الذكرى الخالدة . فمن طالع تلك الروايات لا يمكنه ان يصدّق انها معرّبة ، بل يتأكد انها موضوعة ، لفصاحة عبارتها وتصوير المحيط الذي وقعت فيه كمحيط شرقيّ محض ، لا يشتم منها قط رائحة العجمة حتى في اسماء الممثلين والمدن . .

وقد كان له ملكة نادرة في اللغة ومعرفة مفرداتها ، وميل خاصّ الى اطلاع التلامذة على خصائصها . وقد وضع آمالي للامتحانات في الصفوف ولاسيما العُليا منها ، لم يزل بعضها حتى الآن بين ايدي تلامذته ، والاساتذة الذين عملوا تحت ادارته . ومن هذه الامالي رسائل شتى كان يضعها لغاية مزدوجة : للتدرّج في صعوبات الاملاء ، وكمثال في انشاء الرسائل ، ومنها نصائح وحكم . وانشاء الاخ ساروفيم من المرسل العالي النمط ، على طريقة الشيخ ابراهيم اليازجي ، وابن المقفع ، وولي الدين يكن ، ومحمد عبده . واقتداء بالشيخ ابرهيم ، كان الاخ ساروفيم يميل الى استعمال السجع في كتابته ، اللهمّ متى جاء عفوًا وبلا تصنّع . وانت اذا طالعت مقالات كتابه تاريخ الآداب المصدّرة كلها بمقدمة مسجّعة ، او اماليه او رواياته وحتى رسائله ، تعجب باسلوبه وانسجام عبارته ، ورقّة تعابيره ، ورنّة سجعه اللطيفة .

(لها بقية)